بسم الله الرحمن الرحيم

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة الجزائر 2

مخبر مشكلات الحضارة والتاريخ في الجزائر

نص المداخلة المقدمة للمشاركة في الملتقى الوطني حول

"المشروع النهضوي والمسار التاريخي في الجزائر"

عنوان المداخلة:

مشروع النهضة في الجزائر وخصائص الإنسان الجزائري

من ثقافة التحدي إلى تحدي الثقافة

الدكتور : عمر حيدوسي

كلية العلوم الإنسانية – قسم العلوم الإسلامية – جامعة باتنة

مدخل :

للوصول إلى طرح جدي وجاد لمشروع نهضة جزائرية أصيلة معاصرة ، يجب أن ننتقل بالطرح الفكري لمشروع النهضة الحضارية للمجتمع الجزائري:

- من واقع ثقافي متأزم يتسم بالعجز والسلبية في مواجهة التحديات التاريخية والواقعية التي يواجهها المجتمع الجزائري معرفيا وعمليا؛
- إلى ثقافة جديدة تنطلق من المرجعية الثقافية الأصيلة المعاصرة المتمحورة حول الرؤية الوجودية للإنسان الجزائري المسلم؛
  - بمحاورها التصورية الثلاثة: (الله–الإنسان–الكون)
  - وتجليها الثلاثي (النص–العقل–الواقع)
  - وتراكمها الزمني (الوحي–المجتمع–التاريخ).

لذا، فإن أي تصور لأزمة تخلف المجتمع ومشروع نهضته الحضارية، يجب أن ينطلق من رؤية تصورية متكاملة تتشكل وتمتد في إطار الثلاثيات التصورية السابقة وروابطها العلائقية، في ظل ناظم محوري هو الوعي السنني؛ المستحضر لحركة العقل بضوابطها الشرعية والواقعية والتاريخية، في ظل التناغم التام مع سنن الله في الهداية والأنفس والآفاق، كما يبينه هذا المخطط:

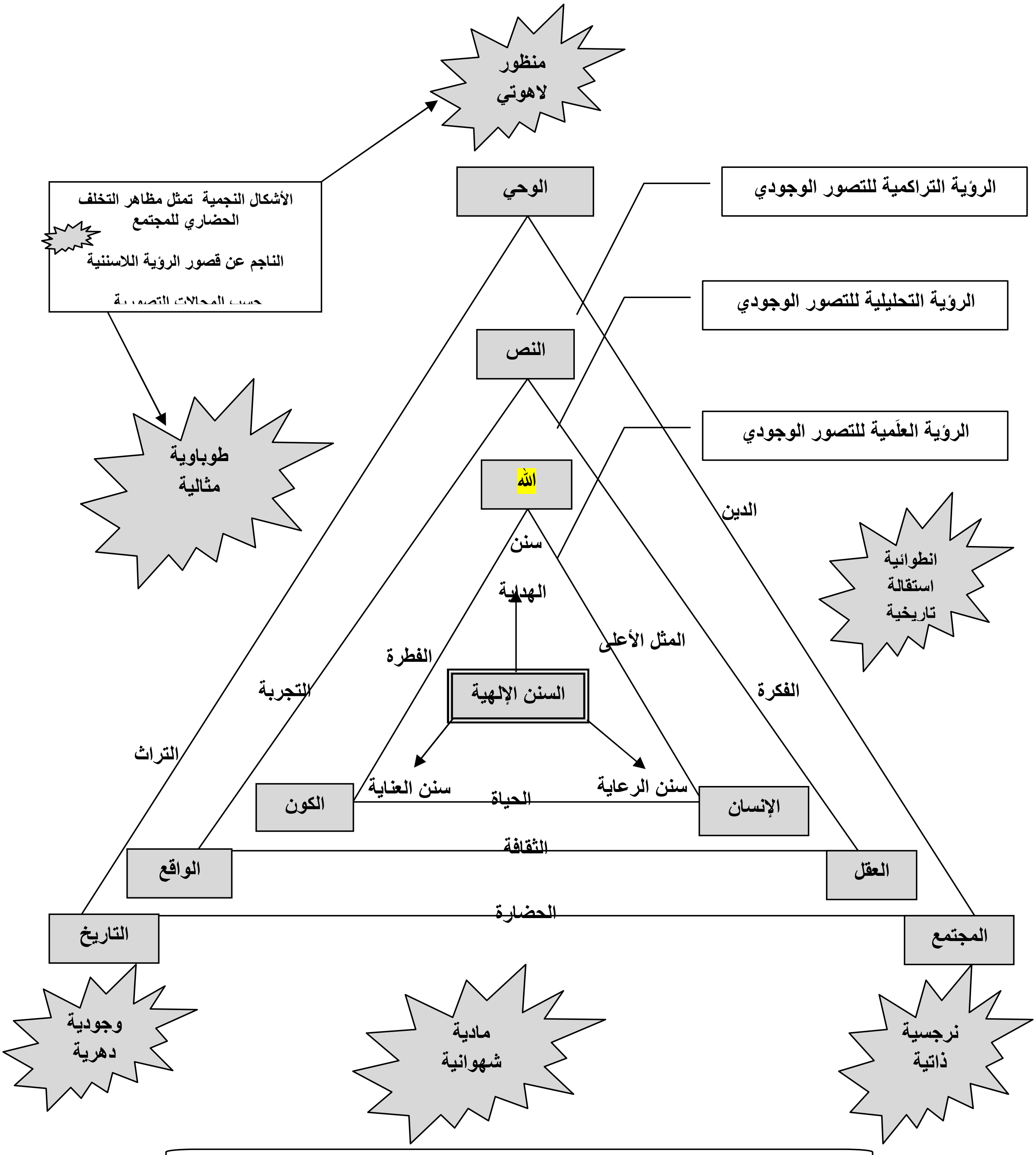

رسم توضيحي يمثل التصور الوجودي الإسلامي بدوائره الثلاث وموقع السنن منه.

ولا حاجة لإثبات أن الواقع النهضوي الجزائري متخلف عما يجب أن يكون عليه، بل إنه متخلف تخلفا ثلاثيا؛

- متخلف تاريخيا عن الرصيد التاريخي للمجتمع الجزائري وتجاربه النهضوية والحضارية السابقة.
- ومتخلف واقعيا عن الواقع العالمي العام المتسم في أسوأ ظروفه بمعالم إيجابية لنهضة حضارية، هذا في النماذج الاجتماعية المقاربة لنا حضاريا وتاريخيا واقتصاديا، أما إذا استحضرنا النموذج الغربي بأشكاله الأوروبي والآسيوي والأمريكي لكان الأمر أوضح والبون أشسع.
- كما أنه متخلف "شرعيا" عما يفرضه عليه انتماؤه الإسلامي من وجوب الشهادة والريادة الحضارية التي تستدعي بالضرورة رفع حالة التخلف واستبدالها بنهضة حضارية شاملة في إطار القيم والمبادئ الشرعية.
- كما أنه متخلف في سياق رابع، تخلفا "عقليا" أقصد أنه متخلف عن الرصيد النظري الذي يملكه من قدرات ومؤهلات وخبرات وثروات روحية ونفسية ومعرفية ومادية وطبيعية.. يفترض عقلا فيمن يملك بعض –ليس كل– ذلك ألا يكون متخلفا، بل متسما بواقع متحضر يناسب مؤهلاته.

في ظل هذه السياقات التخلفية، والتناقضات التي تطرحها واقعيا وتاريخيا وشرعيا وعقليا، تأتي هذه المداخلة كمحاولة لإسالة بعض الحبر الفكري والثقافي حول تساؤل هام حول المعطيات السابقة: لماذا يراوح المجتمع الجزائري هذا الواقع المتسم بالتخلف الحضاري رغم ما يملكه ما أرصدة؟

المجتمع والإنسان:

في الحقيقة، وكما يقرر المنطق السنني المثبت تاريخيا ونظريا وقرآنيا، من خلال طرح المفكر الجزائري الفذ الأستاذ مالك بن بني –رحمه الله–، أن مشكلة حضارة أي مجتمع هي في أصلها مشكلتان:

- ✓ مشكلة ثقافته وتداعياتها التربوية والفكرية والاجتماعية..
- ✓ ومشكلة إنسانه ومركباته الروحية والمعرفية والسلوكية والإنجازية..

❖ ويمكن اختزال الاثنين في مشكلة "العقل" الذي يعبر كإطار عن مشكلة الإنسان، ويعبر كمضمون عن مشكلة الثقافة، ويعبر كمزاوجة بين الإطار والمضمون عن مشكلة الحضارة الملخصة لكل ذلك.

ولذا، فإن أي حديث عن مشكلات المشروع النهضوي في الجزائر –أو في غيرها–، هو بالأساس حديث عن مشكلات الإنسان الجزائري المنصبغ بخصائص الثقافة الجزائرية.

فقد استصحبت مشاريع ومحاولات وتجارب النهضة في الجزائر عبر تاريخها الخصائص والمقومات الثقافية للإنسان الجزائري بإيجابياتها وسلبياتها، المتوارثة بالضرورة من ثقافة الواقع التاريخي.

ويجب أن نسجل هنا أن مشكلات مشروعنا النهضوي الجزائري معقدة بدرجة تعقيد مشكلات الإنسان الجزائري وتشكلاته التاريخية، ومشكلات الثقافة الجزائرية الموروث الراكد والدخيل الوافد، وتراكماتهما الزمكانية.

المشتلة الثقافية:

لا يجب أن نكذب على أنفسنا بالبحث عن مظاهر تخلفنا –أو تقدمنا– في التجليات التقنية والمظهرية والرقمية والعمرانية، لأنها ببساطة يفترض أن تختبر حضاريا بلغة الثقافة لا بلغة المدنية.

فالثقافة ككلّ ومجموع مركب ومتكامل –على حد تعبير تايلور ومالينوفسكي وسوروكين– هي أحسن تعبير عن صفات المجتمع –والإنسان بالتبع– وأسلوب حياته كما يقول مالك بن نبي، وهي الطابع العام المنظم لأنماط السلوك الكسبي السائد في المجتمع كما يقول معرّفوا الثقافة أمثال وايت ولينتون وميريل وغيرهم...

والثقافة بهذا المعنى تشمل كل المؤثرات الدينية المسهمة في بناء الصورة الحضارية للمجتمع والإنسان.

إضافة إلى الانعكاس الاجتماعي للتراث والثقافات الشعبية المسجلة لواقع حياة الناس عبر لغاتهم الاتصالية من لهجات وحكايات وطقوس وأغاني وحتى النكت والأمثال والألغاز، وكل ما يتبع ذلك من العادات والتقاليد والآداب الشعبية والفولكلور الشعبي...

في ظل هذا الفهم للثقافة، تندرج كل خصائص ومظاهر التخلف الاجتماعي، وكذا مظاهر وخصائص النهضة الحضارية لأي مجتمع، كالمجتمع الجزائري.

فتخلف المجتمع الجزائري نلمحه في صفات الإنسان الجزائري وأسلوبه في العيش والتعامل، والطابع العام المنظم والمؤطر لسلوكه، وذلك من خلال:

- مظاهر تدينه الكلية والتفصيلية؛ بالمعنى العام للدين والتدين؛
  - بما في ذلك نمط تعبده الشعائري، وتعبيره عن قيمة ذلك في سلوكه من خلال حديثه وتداعياته.
  - وكذا نظرته لسلوكات الحياة اليومية كأنماط تعبدية، كالعمل والتعاون والعلاقات الأسرية والجوارية...
  - إضافة لبعض العادات الاجتماعية المختزنة لطقوس تعبدية غير إسلامية، إما قديمة متوارثة من التاريخ الوثني، أو وافدة من الثقافة الغربية والشرقية. ويكفي تأمل مشهد اجتماعي كعرس أو جنازة أو زردة أو حتى سوق شعبية، لاستجلاء كثير من تلك المظاهر.
- أما التراث الشعبي الفولكلوري، فهو حاضر بقوة –طبعا– كمرآة عاكسة لثقافة المجتمع وحضارته، وواقع تخلفه.
  - فالأدب الشعبي الشفهي المتناقل جزائريا يعبر عن كثير من مظاهر التخلف؛ من اللغة الاستعمالية المتعارف عليها، بما فيها من عنف لفظي، وقصور حواري، وخليط لغوي ثقافي، ودلالات ذلك نفسيا واجتماعيا وحضاريا...
  - إضافة للعادات والتقاليد والأعراف الاجتماعية وما تختزنه من تراث الأجيال وأخلاق المجتمع وتقلباتها الزمنية، من الحقبة الاستعمارية وطرفيها (ما قبل وما بعد) وفترة الاستقلال وما بعدها، ومرحلة التعددية السياسية وما تلاها من عواصف شوشت على النسيج الاجتماعي وتشكله الثقافي.
  - ونلمح ذلك بجلاء في "التوقيعات" الاجتماعية السريعة المرمّزة والملغمة أحيانا؛ أقصد الألغاز والأمثال والنكت الشعبية. تلك الرموز الثقافية التي تختزن عصارة الأنموذج الثقافي الجزائري والقيم الحاكمة له شعوريا ولا شعوريا، والتي لا تكاد تتخلف في أي موقف أو مشهد اجتماعي، ولها وقع خاص في النفوس لا يفوقه تأثيرا في الإنسان العادي –ربما– إلا النصوص الدينية.
    - ويمكن أن نستحضر هنا –عشوائيا– بعض الأمثال والمقولات الشعبية المتداولة، الدالة على بعض مظاهر الواقع الجزائري، وصورته في المخيال الاجتماعي: "**هكذا ولا كثر**" .. "**حشيشة طالبة معيشة**" .. "**عاش ما كسب مات ما خلا**".. "**جا يسعى ودّر تسعة**" .. "**ليلة في السبيطار ولا ساعة**

روطار" .. "كل عطلة فيها خير" .. "جيب ولدك فاهم، الله لا قرا ".. "الدولة اللي ما عندهاش مشاكل ما هيش دولة، واحنا الحمد لله ما عندناش مشاكل "....

- هذه النماذج من الأدب الشعبي الجزائري توحي بوضوح بنمط عيش وتعامل وتفكير الإنسان الجزائري. ولو توقفنا عند كل واحد منها لرسمنا صورة ثقافية غريبة لإنسان يملك قابلية عجيبة للتأقلم والتكيف مع الظروف، تعبر من جهة عن المرونة والحنكة والحكمة، وتعبر من جهة ثانية عن نوع من المداهنة والمداراة، حتى لا أقول نفاقا ثقافيا واجتماعيا..
- وعليه، تتجلى لدينا صورة –ولو مصغرة– عن مدى غرابة وتداخل وتناقض مضمون المشتلة الثقافية الجزائرية، هذه المشتلة التي تضمن ظروف البقاء والنمو لكل الصور والنماذج والمواقف القيمية المختزنة في الرصيد التجريبي للشخصية الجزائرية.

الثقافة والتحدّي من منظور جزائري:

إنّ الثقافة في حدّ ذاتها تعبير من طرف المجتمع عن أسلوبه في الحياة؛ أي أسلوبه في مواجهة التحديات، لأن الحياة ليست سوى سلسلة من التحديات والعقبات والصعوبات التي يجب تجاوزها للمرور إلى وضع آخر، يفترض أن يكون أفضل من السابق، وهذا هو معنى الانتقال من التخلف إلى النهضة، أو من وضع متخلف إلى وضع أقل تخلفا، أو من وضع متحضر إلى وضع نهضوي أكثر تحضرا..

لذلك فالثقافة والتحدي قرينان مرتبطان، فلا يمكن التفكير في الثقافة دون توقع وجود تحديات معيقة عن تحقيق الكمال الثقافي –من منظور بشري نسبي فالكمال المطلق لله وحده–.

والتحدي –كما يعرّف– هو ذلك الوضع الذي يمثّل وجوده أو عدمه تهديدا أو إضعافا أو تشويها كليا أو جزئيا، دائما أو مؤقتا، لوجود وضع آخر يراد له الثبات والقوة والاستمرار (زكريا داوود: الأمة الإسلامية والتحديات المعاصرة)

والتحدي قد يكون على شكل مشكلات وصعوبات أو عقبات وعوائق أو تغيرات وتطورات.

المهم أن يكون التحدي جديرا بالمقاومة؛ فهناك تحديات ضعيفة لا تستدعي كبير جهد، وهناك بالمقابل تحديات معجزة لا يمكن مقاومتها كالكوارث الطبيعية الكبرى التي لا نملك سوى مواجهة آثارها، أما التحديات التي تهمنا فهي التحديات المنتجة للاستجابة، كما يقول توينبي.

هذا من منظور نظري تصوري؛ أما من منظور جزائري واقعي، فإن التحدي في النسق الجزائري يعني المواجهة المتصلبة للظروف المنتجة لنوع من الصرامة العقلية والروح المنغلقة التي يمكن القول أنها صنعت دوغمائية جزائرية خاصة تفوق دوغمائية روكيتشي.

فالعقلية الجزائرية تنظر إلى كل شيء على أنه تحدّ معيق مشوش، تجسه بداية بمنتهى القنفدية المشوكة – كما هو حال الشخصية الجزائرية تاريخيا–

ولذلك عبرت عن الشخصية الجزائرية بـ "ثقافة التحدي" أي تحدي كل شيء باعتباره عاملا معيقا متحديا بداية. وهذا السلوك ليس بالضرورة سلبيا، فقد يكون مفيدا جدا للمناعة الاجتماعية ضد الفيروسات الثقافية الدخيلة على النسق القيمي الأصيل..

لكن هذا النمط هو دفاعي مناعي ستاتيكي، لا يتحرك بالمشروع النهضوي إلى الأمام.

لذلك لا يكفي إلا إذا صاحبته عقلية ثانية، تواجه التحديات الثقافية وتسعى لتجاوزها وبناء النسق الزمني للنهضة رغم ضغطها المتنامي.

وهذا ما عبرت عنه المداخلة بتحدي الثقافة، أي تحرك الثقافة الذاتية لتحدي الظروف ومتغيراته المعيقة للنمو الاجتماعي. أو بلغة توينبي تحقيق الاستجابة المنتجة.

وبالعودة للقرآن الكريم نجده يعبر عن التحديات بلغة إيجابية منتجة للاستجابة الفاعلة؛ عبر مصطلحات قرآنية عميقة مثل: الابتلاء، الاختبار، التمحيص...

ولهذا كان أول تحدّ يجب مواجهته هو طريقة النظر لمفهوم التحدي نفسه:

- هل هو عامل معيق معجز مانع من الحركة، وهذا شعار الثقافة الاستسلامية السلبية.
- أم هو عامل مهمل ضعيف لا يجب عده أصلا، وهذه نمط ثقافي مستهين مستهتر.
- أم أنه عامل إيجابي حافز مثير للهمة ودافع للحركة للأمام، وهذه هي الثقافة المطلوبة المأمولة التي دعا إليها القرآن والفكر الإنساني السليم.

هذا ويجب التنبيه على أن كل تلك النماذج موجودة في الساحة الثقافية الجزائرية، بكل تفاعلاتها الإيجابية والسلبية.

الإنسان الجزائري بين المَشكلة والأشكلة:

من التحديات الكبرى التي يواجهها الإنسان الجزائري –ومشروعه النهضوي– هو عقلية المشكلة بفتح الميم، أي النظر إلى كل شيء بمنطق المشكلات، وتحويل كل ما يصادفه إلى مشكلات.

وهو ما عبّر الشيخ محمد البشير الإبراهيمي –رحمه الله– حين حلل هذه الجزئية من الشخصية الجزائرية، إذ يقول أن كل ما يتصل بنا نحن الجزائريين أو نتصل به يكون عند أهله حلا ويصير عندنا مشكلة؟ فالمرأة مشكلة، والنهضة مشكلة، والحياة مشكلة، والحضارة مشكلة، والتعليم مشكلة والدولة مشكلة وهكذا...

ثم يبحث عن مصدر الخلل، ويكتشف بسرعة أننا نحن المشكلة... فالإنسان الجزائري إذن مشكلة في حد ذاته.. أو بلغة أدق، يمتاز بعقلية مَشكلة الأمور والمواقف والأحداث.. وبالتالي فإنه مشغول بالبحث عن حقيقة المشكلة ومصدرها والمتسبب فيها وآثارها السلبية طبعا عليه وعلى غيره.

وهذا ما صوّره مالك بن نبي في مشهد المرأة التي تنشغل بتنشيف الأرضية من الماء السائل من حنفية مفتوحة فوق رأسها، وهي تصرخ وتحتج على من فتح الحنفية وتركها مفتوحا، وعلى الرافضين لمساعدتها في تنشيف الأرض. لكنها لا تفكر أبدا في غلق الحنفية ووقف النزيف..

أي أن الحلّ يبقى اللامفكر فيه –جزائريا– في ظل عقلية المشكلة هاته التي تصنع التأزيم والتعقيد.

والبديل الثقافي العلاجي لهذا المنطق هو تنشئة الأنموذج الجزائري على عقلية حلولية جديدة، يمكن تسميتها بعقلية الأشكلة؛ أي تحويل القضايا والمشكلات إلى إشكاليات بحثية.

فثقافة الإشكاليات تستدعي التفكير والبحث العلمي المنهجي المنتج للحلول العلمية العملية، المبنية على استدعاء ميكانيزمات فعلية تطبيقية عاجلة تفكر في الحلول والآليات، بدل الغرق في المشكلات والمتسبب فيها، وكيفية محاسبته ومعاقبته.

وعندما نتحدث عن البحث العلمي، فيجب أن نستحضر بعدين:

- ✓ البعد الأول هو انشغال الأنوية البحثية الأكاديمية الفردية والجماعية لدراسة تلك المشكلات والإشكاليات ودراستها دراسة علميا منهجيا.
- ✓ والبعد الثاني هو ارتقاء مستوى التفكير الفردي "الجزائري" غلى مستوى التفكير العلمي العملي بلغة الإشكاليات –على بساطة الطرح والتناول – مقارنة بالبعد الأول.

"جيولوجية" الإنسان الجزائري:

إن التحليل العلمي للطبقات الأرضية أثبت أنها تتشكل من ترسبات طبقية متداخلة، متفاوتة الحجم والخصائص والنفاذية و...، لكنها تبرز جيولوجيا في الظاهر الكوني ككتل صلبة متماسكة راسخة.

هذا المشهد الجيولوجي غير بعيد عن حقيقة التشكل التاريخي للشخصية الجزائرية؛

فالإنسان الجزائري المعاصر يعيش حاضره بالضرورة، لكنه يعيش معه –كغيره من البشر– ماضيا ومستقبلا، وكلاهما متضمن في بنى حاضره الآني.

فهو يعيش المستقبل كآفاق وتطلعات يرنو إليها كفرد وكمجتمع وكدولة، أو يتوجه نحوها دون قصد أو وعي، وقد يكون موجها إليها بقصد خارجي موجه. وكل هذه الحالات حاضرة في الواقع الجزائري بنسب متفاوتة.

كما أنه يعيش الماضي المشكل لحاضره، هذا الماضي الذي يترسب تاريخيا عبر مختلف حقبه الزمنية وألوانه الثقافية، ليشكل نسيجيا جيولوجيا جزائريا بديعا، مليئا بالثقافات التي مرت من هنا ذات يوم؛

- من العصور التاريخية القديمة وبساطتها الحضارية مع وثنيتها العقدية.
- إلى العصور التالية، عهود الاحتلال الفينيقي والإغريقي ثم الزحف الوندالي والروماني.
- لتجيء بعدها فترة الفتح الإسلامي والتزاوج العربي الأمازيغي، بمختلف مظاهر الخلافة الإسلامية ودويلاتها؛ من العهد الراشدي إلى الأموي والعباسي، ثم العثماني، مرورا بالرستميين والأدارسة والأغالبة والزيريين والحماديين والمرابطين والموحدين والحفصيين والزيانيين والمرينيين...
- مرورا بأشكال الاستعمار الحديث من المحاولات الإسبانية إلى فترة الاستعمار الاستيطاني الفرنسي الصليبي.
- يليها بعد ذلك عهد الاستقلال بمختلف مراحله؛ من عهد الوحدوية إلى التعددية وفترة الأزمة السياسية والعشرية السوداء.

- وصولا إلى عهد المصالحة والوئام المدني والعودة إلى سكة التنمية الوطنية ومحاصرة آثار التخلف المتراكم عبر كل تلكم العهود والحقب التاريخية.

كل تلك العصور لا شك أنها تركت رواسب وآثار عميقة –إيجابية وسلبية– في سيكولوجية وسوسيولوجية المجتمع والإنسان الجزائري، تتجلى عبر كل مظاهره الثقافية وفولكلوره الشعبي؛ من مظهر خِلقي وخُلقي، إلى اللسان والمنطق، فضلا عن المعتقدات والتصورات، وكذا القيم والسمات.

ويمكن أن نعتبر أكثر الفترات تأثيرا في صياغة الشخصية الجزائرية المعاصرة أربعة:

1. الأصول الأمازيغية البربرية وآثارها وامتداداتها المعيشة.
2. العهود الإسلامية، خاصة فترة الفتح والدويلات التي استقرت بالجزائر وعمرت بها.
3. الحقبة الاستعمارية الفرنسية نظرا لطولها وخصوصياتها .
4. العشرية السوداء وما أفرزته من عنف وما تلاها من جهود مصالحة.

العنف.. أبو اللغات الجزائرية المعيشة:

يحكي التاريخ عن شخصية تاريخية جزائرية تدعى أبو بردعة غضب غضبا شديدا فهدم تسعين قرية؟؟

بغض النظر عن صحة القصة وسبب غضب أبي بردعة وكونه هدم تسعين بيتا أم تسعين قرية، بغض النظر عن ذلك، فإن الغضب والنرفزة سمات التصقت بالإنسان الجزائري بشكل عام. وذلك ما أفرز خصائص سلبية كثيرة تنامت مع الظروف والأزمات، وصرت كوابح تمدن ونهضة.

ولعل اهمها وأخطرها ثقافة العنف والتوتر التي جعلت الكثير من الجزائريين يقبلون على الطب النفسي على غير عادتهم ؛ فالدراسات والملاحظات العلمية تشير إلى أن الجزائري كثير الإقبال على العيادات الطبية غير النفسية، أما العلاج النفسي فقد كان من الطابوهات المحرمة ثقافيا ربطا له بالطب العقلي.

ولقد تجلّى العنف في أشكال عدّة:

- عنف لفظي حواري تواصلي جعل الإنسان الجزائري مستعصيا على التعامل والتعايش والتفاعل الإيجابي مع الغير، فتجده لا يكاد يكمل جملة حوارية مقارنة بالأنموذج المشرقي المتسم بمرونة لسانية تواصلية.
    - ولعل هذا أحد عوائق الثقافة السياحية وسر عدم شيوعها وانتشارها في الجزائر، رغم الرصيد السياحي الضخم الذي لا يملك غيرنا معشاره، لكنهم يضخون في الخزينة العامة عشرات أضعاف ما تضخه السياحة عندنا.

- وعنف مادي سلوكي جعل قبضة اليد أقوى عضلة في الجسد الجزائري. مما جعل الشجار والخصومات ثقافة يومية في بعض الساحات الاجتماعية، كأمر عادي بل كمتنفس نفسي في مواجهة الضغوط لتخفيفها وتحقيق قدر كاف من التكيف والتوافق النفسي والاجتماعي. ولعل ذلك ما يحمي الكثيرين من أمراض نفسية حادة كالتوتر والعصاب والإحباط والاحتراق النفسي.

- ذلك ما غذى في العقلية الجزائرية ثقافة نقدية، تكثر من التعليق والتعقيب الحاد العنيف، دون قصد عنفي أحيانا. وكثيرا ما لا يكون ذلك مصحوبا بتقديم البدائل الممكنة أو حتى التكيف مع الواقع الموجود وتهذيبه في انتظار إيجاد المثال المفقود.

- ومن الطبيعي تراكم مثل هذه الأعراض النفسية، في ظل واقع الصدمات والأزمات والكوارث والحروب التي تعود عليها المشهد الاجتماعي الجزائري عبر التاريخ؛ إذ تشير بعض التحاليل إلى أن الساحة الجزائرية لم تخل منذ فجر التاريخ، من أزمة حادة كل ثلاثة عقود زمنية.

- وكأني بالجزائري صار يعيش ذهان الصدمة على حد تعبير فرويد وسيلي وباركنسن، حين وصل حدّ الإنهاك بعد طول مقاومة للضواغط المعيقة لعمليات التكيف الثقافي والاجتماعي.

- والحقيقة أن هذا العنف يخبئ تحته حالات نفسية من القلق واللاأمن وعدم الاستقرار والخوف من غموض المستقبل وسوداويته.

- دون أن ننسى تلك الهوة التي حدثت بين السلطات السياسية والمعرفية والاجتماعية، مما أفرز أزمات ثقة حاصرت كثيرا من المشاريع والجهود وعطلتها. فصار كل سلوك شعبي تمردا، وكل سلوك سلطوي مشكوكا فيه، وكل سلوك معرفي تنفيذا لمخططات استعمارية؟

- كل هذا في ظل العولمة الإعلامية التي كرست كثيرا من السمات السلبية وأذاعتها، متضافرة مع عوامل أخرى أكثر تغلغلا وتعقيدا.

واجبات مستعجلة.. وآفاق واعدة:

✓ عندما نقول ما قلناه، لا نهدف أبدا إلى رسم صورة سوداوية تيأيسية للواقع الجزائري وآفاقه، بل على العكس تماما، نريد أن نواجه الحقائق كما هي لنتوقف عن محاربة الأشباح والأوهام الدونكيشوتية، ونذيب الجبال الجليدية المحيطة بنا وبتاريخنا، وبصورتنا الأصيلة كجزائريين مسلمين، أمازيغ وعرب.

✓ بهذا المنطلق ستكون روح التفاؤل والأمل والثقة في الله أولا، ثم في النموذج الجزائري المبدع، الذي كان ولا يزال يتفتق عن عبقريات نظرية وميدانية فذة، تجلت عبر التاريخ ولا تزال، كلما وجدت العناية والوسط المناسب.

✓ بل أكثر من ذلك، لا ينكر أحد أن الواقع الجزائري يتغير نحو الأحسن –رغم كل ما يقال– إلا أن عين الرضا ستبصر الكثير من الجوانب الإيجابية المحتاجة لتثمين وتأمين و"تسمين".. مع شيء من غض بصر عين السخط المبدية للمساوئ والنقط السوداء في القميص الجزائري الأبيض الذي لطخته أيادي العابثين.

✓ في ظل كل تلك التحديات والحقائق والآفاق، يجب علينا كجزائريين أولا، وكمثقفين رساليين ثانيا، وكمسلمين قبل كل ذلك، يجب علينا أن نسعى جميعا، لنكاثف جهودنا ونرص صفوفنا لتجاوز تلكم التحديات، عبر إعادة بناء وقولبة الشخصية الجزائرية، انطلاقا من عمل تربوي ثقافي عميق هادئ، دون أن يقلقنا كثيرا عامل الزمن، فهو في حد ذاته جزء من العلاج.

✓ إذا نجحنا في ذلك، سنكون قد انتقلنا بالمشروع النهضوي الجزائري من ثقافة التحدي إلى الساحات الحقيقية.. ساحات التحدي الثقافي الأكبر والأعمق والأكثر إلحاح واستعجالا.

✓ إن التحديات التي تواجه الإنسان الجزائري هي في عمقها تحديات ثقافية تواجه متكاملة المجتمع والدولة الجزائرية. والكل مطالب بالمشاركة في الاهتمام والتفكير والبحث عن الحلول والسعي الميداني لتحقيقها وتنفيذها، من أجل الوصول إلى نهضة حضارية شاملة في مجتمع جزائري أمازيغي وعربي مسلم، أصيل ومعاصر. يستحق كغيره من المجتمعات مكانة عالمية مرموقة تليق بإمكاناته البشرية والحضارية ورصيده التاريخي والطبيعي، وموقعه الثقافي بين دول العالم مغاربيا وإفريقيا وعربيا وإسلاميا وعالميا.

الدكتور عمر حيدوسي

كلية العلوم الإنسانية – قسم العلوم الإسلامية – جامعة باتنة